الكامل في التاريخ

للإمام العلامة عمدة المؤرخين أبي الحسن علي بن أبي الكرم
محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني
المعروف "بابن الأثير" الجزري الملقب بعز الدين
المتوفى سنة "٦٣٠" هـ

تاريخ ما قبل الهجرة النبوية الشريفة

تحقيق
أبي الفداء عبد الله القاضي

المجلد الأول

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

بيروت - لبنان

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
هاتف: ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le

ذكر ولادة المسيح عليه السلام ونبوته إلى آخر أمره

كانت ولادة المسيح أيام ملوك الطوائف، قالت المجوس: كان ذلك بعد خمس وستين من سنة غَلَبَةِ الإسكندر على أرض بابل[1] وبعد إحدى وخمسين سنة مضت من ملك الأشكانيين.

وقالت النصارى: إن ولادته كانت لمضي ثلثمائة وثلاث وستين سنة[2] من وقت غلبة الاسكندر على أرض بابل، وزعموا أن مولد يحيى كان قبل مولد المسيح بستة أشهر وأنّ مريم عليها السلام حملت بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة ـ وقيل خمس عشرة، وقيل عشرين ـ وأن عيسى عاش إلى أن رفع اثنتين وثلاثين سنة وأياماً، وأن مريم عاشت بعده ست سنين فكان جميع عمرها إحدى وخمسين سنة، وأنّ يحيى قتل قبل أن يرفع المسيح وأتت المسيح النبوة والرسالة وعمره ثلاثون سنة.

وقد ذكرنا حال مريم في خدمة الكنيسة وكانت هِيَ وابن عمها يوسف بن يعقوب بن ماثان النجار يليان خدمة الكنيسة، وكان يوسف حكيماً نجاراً يعمل بيديه ويتصدق بذلك، وقالت النصارى: إنّ مريم كان قد تزوجها يوسف ابن عمها إلا أنه لم يقربها إلا بعد رفع المسيح[3] والله أعلم.

---

(١) هذا غلط والصحيح أنّ ذلك كان بعد الإسكندر بأكثر من ثلاثمائة سنة ـ (م).

(٢) وهذا أيضاً غلط لأنّ المدة أقل من ذلك بقليل... (منيرية).

(٣) هذا يخالف ما في مرقس ٦ : ٣ ونصها:

(أليس هذا هو النجار بن مريم وأخو يعقوب وموسى ويهوذا وسمعان!! أو ليست أخواته ههنا عندنا؟).

وفي متى ١٣ : ٤٦ : (وفيما هو يكلم الجموع إذا أمه واخوانه قد وقفوا خارجاً طالبين أن يكلموه. فقال لهم: واحد هوذا أمك واخوتك واقفون خارجاً طالبين أن يكلموك. فأجاب وقال للقائل له: مَنْ هي أمي؟ ومَنْ هم أخوتي؟ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال: ها أمي واخوتي).

وكانت مريم إذا نفد ماؤها وماء يوسف ابن عمها أخذ كُلُّ واحد منهما قُلَّتَهُ وانطلق إلىٰ المغارة التي فيها الماء يستعذبان منه ثم يرجعان إلىٰ الكنيسة، فلما كان اليوم الذي لقيها فيه جبرائيل نفد ماؤها، فقالت ليوسف: ليذهب معها إلى الماء. فقال: عندي من الماء ما يكفيني إلىٰ غد، فأخذتْ قُلَّتَهَا وانطلقت وَحْدَهَا حتىٰ دخلت المغارة، فوجدت جبرائيل قد مثله الله لها (بَشَراً سَوِيًّا)، فقال لها:

يا مريم إنّ الله قد بعثني اليك ﴿لأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيًّا﴾(١) قَالَتْ: ﴿أَنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾(٢) أي مطيعاً لله، وقيل: هو اسم رجل بعينه وتحسبه رجلاً. ﴿قال: إنَّما أنا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيًّا. قَالَت: أَنَّىٰ يكونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَم أَكُ بَغِيًّا﴾(٣) أي زانية. ﴿قال: كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ﴾ إلى قوله: ﴿أَمْراً مَقْضِيّاً﴾(٤).

فلما قال ذلك استسلمت لقضاء الله، فنفخ في جَيْب درعها، ثم انصرف عنها وقد حملت بالمسيح، وملأت قلتها، وعادت، وكان لا يُعلم في أهل زمانها أعبد منها ومن ابن عمها يوسف النجار، وكان معها، وهو أول من أنكر حملها، فلما رأىٰ الذي بها استعظمه ولم يدر علىٰ ماذا يضع ذلك منها فإذا أراد أن يتهمها ذكر صلاحها وأنها لم تغب عنه ساعة قط، وإذا أراد أن يبرئها رأى الذي بها، فلما اشتد ذلك عليه كلمها، فكان أول كلامه لها أن قال لها: إنه قد وقع من أمرك شيء قد حرصت علىٰ أن أميته وأكتمه فغلبني. فقلت: قل قولاً جميلاً. فقال: حدثيني هل ينبت زرع بغير بذر؟ قالت: نعم. قال: فهل ينبت شجر بغير غيث يصيبه؟ قالت: نعم. قال: فهل يكون ولد بغير ذكر؟ قالت له: نعم. ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه بغير بذر! ألم تعلم أن الله خلق الشجر من غير مطر! وأنه جعل بتلك القدرة الغيث حياة للشجر بعد ما خلق كل واحدة منها وحده. أو تقول لن يقدر الله علىٰ أن ينبت حتى يستعين بالبذر والمطر.

قال يوسف: لا أقول هكذا، ولكني أقول: إن الله يقدر على ما يشاء أنما يقول

---

(١) مريم: ١٩.

(٢) مريم: ١٨.

(٣) مريم: ١٨ - ١٩.

(٤) مريم: ٢١.

لذلك كن فيكون. قالت له: ألم تعلم أن الله خلق آدم وحواء من غير ذكر ولا أنثى؟ قال: بلى، فلما قالت له ذلك وقع في نفسه أن الذي بها شيء من الله لا يسعه أن يسألها عنه لما رأى من كتمانها له، وقيل: أنها خرجت إلى جانب الحجرات لحيض أصابها، فاتخذت من دونهم حجاباً من الجدران، فلما طهرت إذا برجل معها وذكر الآيات، فلما حملت أتتها خالتها امرأة زكريا ليلة تزورها فلما فتحت لها الباب آلتزمتها، فقالت امرأة زكريا: إني حُبْلَىٰ. فقالت لها مريم: وأنا أيضاً حبلى! قالت امرأة زكريا: فإني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك. وولدت امرأة زكريا يحيى.

وقد اختلف في مدة حَمْلها، فقيل تسعة أشهر وهو قول النصارى، وقيل ثمانية أشهر فكان ذلك آية أخرى لأنه لم يعش مولود لثمانية أشهر غيره، وقيل ستة أشهر، وقيل ثلاث ساعات، وقيل ساعة واحدة وهو أشبه بظاهر القرآن العزيز لقوله تعالى: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيًّا ﴾(١) عقبه بالفاء.

فلما أَحسَّت مريم خرجت إلى جانب المحراب الشرقي فأتت أقصاه ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قالت ﴾(٢) وهي تطلق من الحبل استحياء من الناس ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا ﴾(٣) تعني نسي ذكري وأثري فلا يُرَىٰ لي أثر ولا عين.

قالت مريم: كنت إذا خلوت حدثني عيسى وحدثته فإذا كان عندنا إنسان سمعتُ تسبيحه في بطني. (فَنَادَاها) جبرائيل (مِنْ تَحْتِها) أي من أسفل الجبل ﴿ لَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾(٤) وهو النهر الصغير أجراه تحتها. فمَنْ قرأ مِنْ تحتِها بكسر الميم جعل المنادى جبرائيل، ومَنْ فتحها قال: إنه عيسى أنطقه الله. ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾(٥) كان جذعاً مقطوعاً فهزته فإذا هو نخلة. وقيل: كان مقطوعاً فلما أجهدها الطلق احتضنته فاستقام وآخْضَرَّ وأرطب فقيل لها: ﴿ وَهُزِّي إليك بجذع النخلة ﴾ فهزته فتساقط الرُّطَبُ فقال لها: ﴿ فَكُلِي وَآشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِن

---

(١) مريم: ٢٢.

(٢)، (٣) مريم: ٢٣.

(٤) مريم: ٢٤.

(٥) مريم: ٢٥.